بلزاك

للكاتب الكبير ستيفان زفايج

للأستاذ علي كامل

(يعتبر ستيفان زفايج من أعظم كتاب التراجم المعاصرين كما أنه في مقدمة كتاب القصة . وكتابه عن القصصي الفرنسي الخالد أونوريه دو بلزاك من أحسن ما كتب عن الأديب الكبير. ولقد كان كتاب « البرازيل أرض المستقبل » هو آخر كتاب أصدره زفايج في حياته . وقد وضعه بعد رحيله إلى البرازيل عام ١٩٤٠ هربا من الطغيان النازي . أما كتابه عن بلزاك فقد مات زفايج منتحرا ، كما هو معروف ، قبل أن يتمكن من نشره وكان قد أعد كل محتوياته . فلم تكد تضع الحرب أوزارها حتى سعى ناشره إلى الحصول على أصوله وتوصل إليها ونظم أبوابها بعد مجهود مضن ثم أصدر الكتاب منذ عهد قريب وكان بذلك آخر كتاب ظهر لزفايج في عالم الأدب)

كانت والدة بلزاك تصغر أباه باثنين وثلاثين عاما ، ولم يكن زواجها منه عن حب ، بل كان نتيجة إرغام من جانب أسرتها التي رأت في مركز برنار فرانسوا بلزاك ما يشجع على قبول هذا الزواج . كانت عصبية المزاج حادة الطبع تسيء معاملة ابنها أونوريه . ولم ينس أونوريه ، حتى بعد أن شب عن الطوق وأصبح رجلا وكاتبا تطبق شهرته الآفاق ، إساءات والدته إليه . فقد كتب في أحد خطاباته إلى آخر عشيقاته وزوجته فيما بعد مدام دوهانسكا يقول : « آه لو عرفت أي نوع من النساء والدتي . إنها الرعب والهول مجتمعين . إنها الآن في سبيل القضاء على شقيقتي بعد أن قضت على جدتي . إنها تكرهني ، تكرهني حتى قبل مولدي . إن والدتي هي سبب كل ما حل بي من مآسي الحياة »

ولقد كانت هذه الحياة العائلية الشاذة سببا في أن يكرر بلزاك في كثير من المناسبات بأنه « قاسى أفظع طفولة رآها إنسان على الأرض » . ولا شك أن هذه الطفولة المعذبة قد اشتركت في توجيه مستقبل حياته فيما بعد

لم يكن بلزاك في حياته المدرسية مجدا . وكان كثيرا ما يشرد بفكره أثناء الدرس ، مبديا عدم الاهتمام بما يلقيه أساتذته من الدروس . وقد نسب هو ذلك فيما بعد إلى أن امتلاء ذهنه بالأفكار جعله يرى فيما يلقى عليه أقل من المستوى الذي يتطلبه ذكاؤه وطموحه واطلاعه ، ذلك الاطلاع الذي انكب عليه كوسيلة للعزاء في البداية ، قبل أن يكون وسيلة للتثقيف

وظل بلزاك طول حياته الدراسية محروماً من العطف العائلي حتى بلغ العشرين وحصل على إجازة الحقوق ، ولكنه بدلا من أن يسير في الطريق الذي أهلته له دراسته وكما تبغي أسرته ، استيقظت فيه فجأة الرغبة في مزاولة حرفة الأدب ، واستطاع أن يقنع أسرته بعد كفاح مستميت أن تمده بمبلغ من المال للذهاب إلى باريس ليجرب حظه مدة معينة لا تزيد على سنتين إذا فشل بعدها عاد إلى موطن الأسرة ليزاول الحياة التي أهلتها له دراسته القانونية

ورحل بلزاك إلى باريس ، وأقام في رقم ٩ شارع ليديجوير في غرفة في سطح المنزل ، غرفة صغيرة تعافها النفس ، اختارتها له والدته بنفسها خصيصا لتبغض إليه الحياة التي يطمع فيها . بيد أن بلزاك احتمل حياته الجديدة بعزم وعناد . فكان ينظف الغرفة بنفسه ويذهب لشراء الطعام الرخيص كل يوم حتى يوفر ما تكلفه إياه المطاعم . حتى الماء كان يذهب لإحضاره من نافورة سان ميشيل كي لا يتكلف ثمن شرائه . ولم يكن كل ذلك ليثبط من عزيمته ، وكان يتعزى عن شقائه بالتطلع من نافذة غرفته الصغيرة إلى أضواء باريس ، متأملا سحرها ، حالما بذلك المجد الأدبي الذي يصبو إليه ليكون اسمه علما بين كتاب تلك المدينة التي أضاءت سماءها أسماء أعاظم رجال الأدب والفكر في مختلف العصور

فإذا ما أراد بلزاك أن يخرج من سجن غرفته ذهب إلى الأحياء الشعبية يتأمل ساكنيها ويدرس نواحي الحياة

بين أرجائها . وكان لا يجد غضاضة أو غرابة أثناء تجواله إذ كانت ملابسه كما يقول ، لا تلفت إليه الأنظار لأنها لا تفترق فى بساطتها عن ملابس العمال والبسطاء من ساكنى تلك الأحياء ، فوق أن مشاعره كانت تتجاوب مع مشاعرهم ، فيرثى لضروب تعاستهم ، متضامنا وإياهم فى سخطهم على رؤسائهم الذين يستبدون بهم ويرهقونهم فى مقابل لقمة العيش . ولقد كانت هذه الفترة من حياة بلزاك حاسمة فى تحديد تفكيره وإدراكه لنفسية الطبقات الكادحة وما يختزن فيها من مواهب إذا اكتشفت وأحسن توجيهها أخرجت للنور الكتاب والمخترعين والفنانين وسائر القادة فى مختلف ضروب الفكر الإنسانى

وانقضى شهران دون أن يعرف بلزاك ماذا يكتب وقد تكدست فى ذهنه المشاريع المختلفة . وأخيرا استقر رأيه على كتابة مأساة شعرية بعنوان (كروموبل) فبدأ توا فى كتابتها وكان يريد أن ينتهى منها سريعا قبل أن تجئ إليه والدته لتحاسبه على ما أعطته من نقود وعلى ما إذا كان قد استطاع أن يوفى بوعده فى أن يصبح أديبا ؟ ! وانهمك بلزاك فى الكتابة وحيدا فى غرفته ، لا يغادرها مرة كل بضعة أيام حتى انتهى منها . وحمل بلزاك مأساته إلى أسرته واتفق الجميع على عرضها على صديق للأسرة ملم بأصول الأدب والنقد . وبعد أن قرأها أبدى رأيه بعدم صلاحيتها . ولم يحاول بلزاك أن يناقش أو أن يحرج كبرياءه بعرضها على أشخاص آخرين أو على أحد المسارح فألقى بها فى زاوية مكتبه ولم يخرجها من مكانها حتى مماته !

على أن هذه المسرحية ، رغم فشلها ، قد أنالته شيئا من الثقة من جانب والدته فى أن يكون يوماً من الأيام أديبا يلمع اسمه بين رجال الأدب فى فرنسا

لم ييأس بلزاك من عدم نجاحه فى عمله الأدبى الأول . وكان إيمانه بنفسه كافيا لأن يدفعه ليواصل صراعه . لكن المشكلة الكبرى التى أمامه الآن هى أن المال الذى منحته إياه أسرته يوشك أن ينفد ، ولذا يجب أن يجد طريقة للحصول عليه حتى يستطيع أن يبقى فى باريس ويواصل هذا الصراع . وأخيرا اتفق مع أحد أصدقائه ويدعى أوجوست لو برانفان على أن يتعاونا معا على كتابة قصص يوقعانها باسم مستعار

وانتقل بلزاك من غرفته إلى المنزل الذى كانت تسكنه شقيقته لور بعد أن هجرته بعد زواجها وجعله مقرا له يكتب فيه القصص المتوالية بمعاونة صديقه أوجوست . ولا شك أن هذه الفترة من حياة بلزاك لا تشرف تاريخه الأدبى . فقد كان يسعى إلى كتابة أى نوع من الكتابة سواء كان قصصاً أو غيرها مادام يدر ربحا ماديا . وكان يلجأ إلى اقتباس الموضوعات من أى مصدر يصادفه . ولقد كان عذره الوحيد أمام ضميره فى ذلك الوقت هو السعى لأن يكسب حياته بأى سبيل حتى يستقل عن الحاجة إلى معونة أسرته ، وليستطيع البقاء فى باريس تمهيداً لمجده الأدبى الذى لم يتنازل عن العزم على الوصول إليه . ولقد أدى هذا التهافت من بلزاك على كسب حياته بأية طريقة إلى أن لا يتروى فى كتابته فكان يؤجر قلمه لكتابة كل ما يطلب منه فى مقابل أجر معلوم . ولم يغتفر له مؤرخو حياته فيما بعد هذه الزلة التى استمر عليها بضعة أعوام رغم سعيه إلى تبريرها بمنطقه البليغ وقدرته الفذة فى الإقناع

على أن أعجوبة بلزاك الكبرى أنه رغم هذا الإسفاف الأدبى خلال تلك السنوات قد استطاع أن يتطهر منه فيما بعد ، وأن يكون فى أدبه عالى الضمير ، يتأنق فى فنه ويعيد تصحيح ما كتب بعد إرساله إلى المطبعة عدة مرات حتى ضج منه الناشرون إلى درجة أن قاضاه بعضهم من أجل ما يتحملون من نفقات نتيجة تصحيحاته وتغييراته التى لا تنتهى

وبلغ بلزاك الثالثة والعشرين وهو فى أوج كفاحه المضنى بمعاونة صديقه أوجست فى سبيل التحرر من إعالة أسرته والبقاء فى باريس . وإلى هذه السن لم يكن يعرف

عن العلاقات النسائية شيئا .فقد كان شديد الخجل ، مهمل الهندام ، لا يجذب إليه نظر الجنس الآخر لبدانته وبعده عن كل جاذبية وانطوائه على نفسه . ولطالما شعر بالألم عندما كان يرى شبانا فى عمره يعبرهم أقل منه ذكاء وشأنا فى صحبة فتيات جميلات لا يستطيع هو أن يصل إلى معرفتهن . وفى ذات يوم هيأت له الظروف رؤية مدام دوبيرنى صديقة عائلته وكانت فى عمر والدته إذ كانت فى الخامسة والأربعين بينما هو فى الثالثة والعشرين . فوقع فى غرامها وظل يمطرها بخطاباته الملتهبة . ورغم صدها له فى البداية فقد انتهى الأمر بها إلى الاستسلام والسماح له بلقائها ذات ليلة فى منزلها فتحقق له حلم فى التمتع « بتلك الليلة الصاخبة الممتلئة باللذة ، تلك الليلة التى لا يستطيع التمتع بها إلا مرة واحدة ذلك الطفل الذى بلغ مرحلة الرجولة والتى يسعد بها عندما يصادفها لأول مرة فى حياته »

ولقد دامت صداقة بلزاك لمدام دوبيرنى قرابة عشر سنين . وحتى بعد هجره لها وإنشائه علاقات أخرى مع غيرها فقد بقى وفيا لذكرى صداقتها ، يراسلها بين وقت وآخر ويسترشد بآرائها . فقد كان يرى أن على يديها وحدها تفتحت أمامه أبواب السعادة النفسية وعرف الحب الأول مرة فى حياته وفى وقت بلغ به اليأس مبلغا جعله يفكر فى أن الموت هو السبيل الوحيد للخلاص من عذابه

ولقد كان التفاوت الكبير بين عمريهما مما سهل التغلب على سذاجته العاطفية ومشكلة خجله المرضى . ألم يكن يتمثل مدام دوبيرنى أمام ناظريه حين قال كلمته الخالدة : « ليس إلا الحب الأخير للمرأة الذى يستطيع أن يرضى الحب الأول للرجل » ؟ ! ولقد رسم هذا الحب الأول لبلزاك طريق ميوله الغرامية طول حياته ونوع المرأة التى تستطيع فى نظره أن تملأ فراغ قلبه وتروى ظمأ حواسه الملتهبة المتدفقة ؛ فالحبيبة النموذجية فى نظر بلزاك هى تلك المرأة التى تخطت الثلاثين والتى تكون منه بمثابة الأم لطفلها المدلل ، تغمره بعطفها وتحنو عليه وقت الشدة ، وتمده بالمعونة المالية وقت الحاجة . هى تلك المرأة الواعية التى ترتفع بتجاربها عن الأنانية التى تريد أن تجعل من الرجل وسيلة لا غير لتحقيق أطماعها وإطفاء لهيب نزواتها . هى تلك المرأة التى أوشكت بحكم سنها ان تفقد الأمل فى صداقة جديدة والتى تشعر بالسعادة الحقة إذ أتيحت لها تلك الفرصة النادرة التى تشعرها بأنه لا يزال هناك من الرجال من يعجب بها ويرغب فى صداقتها . وما بطلتا قصتى (المرأة المهجورة) و (المرأة ذات الثلاثين زبيعا) إلا صورتان عن بطلات حياته الغرامية اللواتى خلدهن فى قصصه العديدة ومنحهن حق التمتع بالحياة رغم العرف السائد فى ذلك الوقت على الخصوص الذى يحرم عليهن بعد هذه السن التمتع بهذا الحق

ولقد كانت هذه الصور الخالدة للمرأة التى تخطت الثلاثين فى قصص بلزاك سببا فى أن يخلق حوله طبقة من المعجبات لم يتمتع بهذا غيره من كتاب القصة فى القرن التاسع عشر . وفى جو هذه الصور الحية كان بلزاك يبشر بفلسفته الجديدة على لسان أبطاله كقوله « إن المرأة ذات الأربعين تعطيك كل شئ . أما ذات العشرين فلا شئ إطلاقا » . ولقد طبق بلزاك طوال حياته الغرامية هذه العقيدة فكان « شديد الكره للفتيات » لأنهن يأخذن كثيرا ويعطين قليلا . كما أنه لم يلجأ إطلاقا فى علاقاته إلى بائعات الحب أو إلى ذلك النوع من الغانيات اللعوبات المغرورات . وما كانت صداقته بعد مدام دوبيرنى كصداقته لدوقة ابرانتيز ومدام ريكاميه ومدام رولا كارو ودوقة كاستري ثم أخيرا مدام دوهانسكا إلا تطبيقا لتلك العقيدة التى كونها لنفسه على ضوء حبه لمدام دوبيرنى وهو أن تكون المرأة له أما وشقيقة وصديقة وعشيقة فى وقت واحد ، يلوذ بها أيام المحن والكوارث فتغمره بتشجيعها وسلواها وتهرع إليه فى ليالى الشقاء كما كانت تفعل مدام دوبيرنى التى كانت « تأتى إليه كل يوم كما يأتى النوم الكريم يسكن وقر الآلام »

***

بقى بلزاك حتى الثلاثين من عمره يكافح بعناد دون أن يخرج عملا أدبيا ذا قيمة إلى أن أصدر أول قصة طويلة له (التعويذة) la feau de chagrin فكانت فتحا جديدا في الفن القصصى من حيث قوة التحليل ودقة الوصف وكان نجاحها بداية فجر مشرق . فمنذ ذلك الوقت رسم بلزاك لنفسه هدفا رئيسيا لموضوعات قصصه وهى أن تكون دراسة للمجتمع بكافة نواحيه يختلط فيها كل من الغنى والفقر ، السعادة والشقاء ، الطبقة العليا والطبقة السفلى ، قوة المال وضعفه ، وبالاختصار كل ما يمج به المجتمع من متناقضات . ذلك أن بلزاك كان يعتبر أن هذه المتناقضات أشبه ما تكون بالعناصر الكيميائية التى يتوقف كل منها على الآخر . فثراء طائفة من الناس سببه فقر الآخرين . والفقر المميت لا ينتج إلا لأن البعض قد استحوذ على معظم الثروات .. وسعادة البعض كثيرا ما تكون على حساب تعاسة الآخرين وهكذا . ولقد كانت حياة بلزاك الخاصة فى باريس وما عركه بنفسه بين مختلف طبقاتها هو المصباح الذى أرشده إلى حقائق المجتمع الإنسانى فى عصره . وما قصصه (الأوهام الضائعة) و (لويس لا مبير) و(سيزار بيروتو) و (الأب جوريو) و (أوجينى جراندية) وغيرها إلا ثمرة دراساته الشخصية وحياته العاصفة التى جعلت منه الأديب المؤرخ لعصره والمصور الصادق والطبيب البارع للمجتمع الباريسى الصاخب والمجتمع الإنسانى بوجه عام

ولقد استطاع بلزاك خلال هذا الكفاح العنيف فى سبيل تأدية رسالته وفى سبيل « أن يحقق بعلمه ما حققه نابليون بحسامه » كما قال — أن يكتب فى مدة عشرين عاما — عدا المسرحيات والمقالات والقصص القصيرة — أربعا وستين قصة طويلة وأن يخلق فى هذه القصص ألفى شخصية إنسانية ، كل منها نموذج قائم بذاته للطبيعة البشرية بفضائلها ورذائلها ، محققا بذلك حلمه فى أن يرسم صور المجتمع الإنسانى بكافة ألوانه وطبقاته فى قالب قصصى فى سلسلة أطلق عليها فيما بعد ذلك العنوان الخالد على الدهر (المهزلة الإنسانية)

ولقد ارتفع بلزاك بإنتاجه الأدبى إلى أن يكون كما كان يتمنى « على رأس الحياة الأدبية فى أوربا » وأن يكون « خليفة بيرون ووالتر سكوت وهوفمان » . والواقع أن بلزاك قد فاق الأدباء الذين كان يتخذهم فى شبابه مثلا أعلى له ؛ فقصته (لويس لامبير) التى تعتبر أعمق وأقوى ما كتب كانت بمثابة فتح جديد فى الفكر الأوربى عندما كشفت العلاقة الخفية بين العبقرية والجنون قبل أن يكتشفها علماء النفس فى أوائل القرن العشرين بعشرات السنين . ولقد كان بلزاك يريد أن ينافس بقصته (لويس لامبير) قصة (فاوست) للكاتب الألمانى جوت ! ورغم أنه وصل إلى ما يبغى إلا أننا ندهش حين نعلم أن بلزاك كتب قصته فى ستة أسابيع بينما لم يفرغ جوت من كتابة (فاوست) إلا بعد ستين عاما من بدئه فيها

وإذا كان بلزاك لم يحقق كل حلمه ولم يتم برنامجه إلى آخره فقد حقق معظمه وكتب أربعة أخماس (المهزلة الإنسانية) قبل أن يعاجله الموت فى الثانية والخمسين . بيد أن بلزاك قد دفع الثمن غاليا من صحته التى أنهكها السهر الطويل المضنى . ولعل العجب يتولى كل من يعرف طريقته فى العمل التى تفوق طاقة البشر ! إذ كان يقضى فى كثير من الأحيان أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لا يغادر أثناءها شقته الصغيرة فى شارع كاسينى . وكان يبدأ الكتابة عند منتصف الليل حتى إذا ما طلع الصباح تناول إفطاره ثم شرع فى تصحيح النماذج التى ترسلها إليه المطبعة فيغير ويمحق وكثيرا ما يعيد كتابة صفحات بأكملها . فإذا ما حل المساء لجأ إلى سرير نومه حتى منتصف الليل ليستيقظ ويواصل الكتابة . ولقد ذكر طبيبه وصديقه الدكتور نا كار أن سبب موته يرجع إلى أن قلبه كان متعبا بسبب الإرهاق فى العمل والمبالغة فى شرب القهوة ليستعين بها على مقاومة النوم . ولقد أحصى أحد المقربين إليه عدد فناجين القهوة التى احتساها فى حياته فبلغ خمسين ألف فنجان !!

* * *

ولقد كان موت بلزاك مأساة أخرى تختتم بها مآسي طفولته المعذبة وكفاحه الفكري العنيد . كان منذ سنوات قد وقع في غرام مدام دوها نسكا . وكانت سيدة روسية غنية متعجرفة تتعالى عليه وتعتز بأصلها الأرستقراطي وتجعل من صداقتها له ملهاة لغرورها . وكان بلزاك لسوء حظه ضعيفا مع النساء ، شديد الإحساس بالنقص تجاه كل سيدة رفيعة المقام : وبسبب هذا الإحساس تضخمت في ذهنه فكرة الزواج من مدام دوها نسكا لما سيناله بزواجها من شرف ومال فيحقق بذلك حلمه القديم في الحصول على « امرأة وثروة » تستقر بها حياته المضطربة ليتفرغ بعد ذلك في هدوء لإتمام رسالته الأدبية الضخمة

وكان زوج مدام دوها نسكا عندما تعرف عليها بلزاك لا يزال على قيد الحياة . فظل بلزاك صبورا على علاقته بها سنوات حتى مات زوجها وحانت بذلك فرصة الزواج . إلا أن مدام دوها نسكا كانت تسوف في وعدها ، مختلقة الأعذار دون أن تقطع علاقتها بالكاتب الكبير الذي كانت رفعة مكانته الأدبية في أوروبا بأسرها تضفي على من تصادمه رجلا مثله هالة من الرفعة والمكانة

وكانت صحة بلزاك قد أخذت في الانهيار وأجمع الأطباء على أن حالة القلب لديه لا تسمح له بحياة طويلة . عندئذ وعندئذ فقط وافقت مدام دوهانسكا على أن تحقق للرجل الذي صبر السنين الطوال وعفر وجهه في الثرى تحت قدميها لينال يدها الأمنية الكبرى التي يجيش بها صدره . فما الذي ستفقده بهذا الزواج وقد أجمع الأطباء أنه لما يبق له في الحياة إلا شهور معدودة !

وسافر بلزاك إلى روسيا رغم اعتلاله ليعقد أخيراً زواجه في مارس عام ١٥٨٠ في هدوء وصمت تحقيقاً لرغبة مدام دوهانسكا التي كانت تعتقد أن في هذا الزواج انتقاصا من مقامها . ولهذا كتب العقد بغير احتفال ولم يشعر به أحد ولم يدع إليه إنسان وتمت مراسيمه في الساعة الرابعة صباحا قبل أن يستيقظ النيام من نومهم !

وفي مايو بدأ الزوجان رحيلهما إلى باريس ليقيما في ذلك البيت الذي ظل بلزاك منذ وقت طويل يعده في شارع فورتونيه بكافة ألوان الترف والنعيم في انتظار ذلك اليوم الموعود . وكانت الرحلة شاقة على صحة بلزاك حتى خيف ألا يستطيع أن يتمها سالما ، ذلك أنه لم يكد يصل إلى درسدن حتى انهارت قواه وتضاءلت قوة إبصاره ولكنه قاوم إرادته . فكل ما يأمله الآن هو أن يصل مع مدام دوهانسكا إلى منزل فورتونيه ليعيش فيه بين ذراعيها ولو بضعة أيام

وقبل أن يصل بلزاك إلى باريس كان قد أرسل بكل تعليماته إلى والدته التي كانت تقوم بكل الترتيبات في منزله الجديد . فطلب منها ألا تكون بالمنزل عند وصوله إليه لأنه يعلم أن مدام دوهانسكا لا تريد رؤيتها . كما طلب أن يكون فرانسوا خادمه الخاص في انتظاره أمام المنزل بعد أن يضيء جميع أنواره . وعندما وصل الزوجان أمام المنزل الموعود لم يجد بلزاك فرانسوا في انتظاره فظل يطرق الباب دون مجيب . وانتظرت مدام دوهانسكا في العربة حتى استدعى أحد المختصين افتح الباب عنوة . وعندما دخل العروسان وجدا فرانسوا في إحدى الغرف وقد أصابه الجنون فجأة فنقل في نفس الليلة إلى إحدى المصحات

كان حلم بلزاك أن يعيش في هذا المنزل خمسة وعشرين عاما يكتب أثناءها خمسين كتابا يتم قائمة مؤلفاته التي تكون (المهزلة الإنسانية) والتي يبلغ مجموعها مائة وأربعة وأربعين مؤلفا . وكان قد أعد لذلك غرفة مكتب فاخرة إلى جانب غيرها من الغرف الحافلة بأفخم أنواع الأثاث ؛ فإلى أي مدى تحقق هذا الحلم ؟ لم يخط بلزاك حرفا في غرفة المكتب الفاخرة . ولشد ما يبدو أن بلزاك كان يحس بما يخبئه له المستقبل النادر فجعل من نفسه ومن أحلامه الفاشلة الشخصية الرئيسية لقصته (الأوهام الضائعة)

نعم ! لقد أراد القدر أن يأتي بلزاك إلى هذا المنزل ، موطن خياله الذي صبر من أجله طويلا ، لتنهار صحته نهائيا بمجرد وصوله . فمنذ اليوم الأول لم يعد يقوى على